

بطاقة قراءة

النهب الكبير — الجزء الثاني

حملة مصر (١٧٩٨-١٨٠١)

رواية تاريخية لروبير كازانوفاس

١. البطاقة التعريفية

العنوان: النهب الكبير — رواية تاريخية في أربعة أجزاء؛ الجزء الثاني: «١٧٩٨-١٨٠١ — حملة مصر»

المؤلف: روبير كازانوفاس

النوع: رواية تاريخية ذات منحى توثيقي ونقدي، تقوم على أبحاث حقيقية

الطبعة: الطبعة الثالثة، منقحة ومصححة؛ الإيداع القانوني في أبريل ٢٠٢٦؛ نسخة رقمية وورقية

ISBN : 978-2-488999-78-6

البنية: تنبيه، ثم أربعة فصول كبرى مقسمة إلى ثمانية وعشرين قسمًا مرقمًا

الحقبة: من مايو ١٧٩٨ (الإبحار من طولون) إلى خريف ١٨٠١ (العودة إلى فرنسا)، مع خاتمة تمتد حتى نشر «وصف مصر» (١٨٠٩-١٨٢٩)

الأماكن الرئيسية: طولون، مالطا، الإسكندرية، القاهرة، الجيزة، سقارة، دندرة، طيبة، وادي الملوك، أسوان، فيلة، رشيد، باريس

السلسلة: تأتي بعد الجزء الأول («ولادة المنظومة»)، وتندرج في أعمال المؤلف المخصصة لسلب الأعمال الفنية (الغرفة المسروقة، الوصية كانت مزورة، السلب)

الغلاف: نسخة طبق الأصل من حجر رشيد محفوظة في متحف شامبوليون بفييف (إيزير)، صورة التقطها جوليان بيتار في ١٧ يوليو ٢٠٢٢

الموقع المرافق: www.international-restitutions.org

٢. عرض عام

يتتبع الجزء الثاني من «النهب الكبير» حملة مصر من منظور العلماء والرسامين والمهندسين الذين أبحروا مع بوناپرت. وهو لا يروي الحملة العسكرية لذاتها — فالمعارك تُعالج في بضع صفحات، على نحو يقارب السرد التاريخي — بل ما يجري في ظلها: كيف يصف فيلق من «المفوضين» والعلماء مصر القديمة، ويقيسها، وينسخها، ويشتريها، وينتزع منها، ثم يحزمها في النهاية لينقلها إلى باريس. والخيط الناظم سؤال ترفض الرواية أن تحسمه بكلمة: أين ينتهي الجمع العلمي وأين يبدأ النهب؟

يضع التنبيه الكتاب في ظلّ خيال يستند إلى البحث: فجميع الأعمال المذكورة صودرت فعلاً خلال الفتوحات الفرنسية بين عامي ١٧٩٤ و١٨١٣، ومعظم الشخصيات وُجدت حقاً، لكن بعض الشخصيات والمشاهد والحوارات متخيلة. وهكذا تتقدم الرواية من الإسكندرية إلى فيلة، ثم من حجر رشيد إلى استسلام ١٨٠١، حيث يطالب الإنجليز بدورهم بما ظنّ الفرنسيون أنهم أنقذوه. ويحمل هذا التساؤل تبعاً دينون وجومار وفورييه وجوفروا سان-هيلير وبضع شخصيات متخيلة أو قليلة التوثيق، مثل المترجم حسن أو وكيل ترعة الجيزة عبد الله بن يوسف.

٣. ملخص الفصول فصلاً فصلاً

الفصل الأول — الشرق في السلاح

من طولون إلى مالطا. في ١٩ مايو ١٧٩٨ يغادر الأسطول طولون. وعلى متنه برتوليه ومونج وجومار وفورييه ودينون. يرى برتوليه في «البعثة العلمية» «عملية اقتناء». وأمام فالييتا يؤكد بوناپرت أن ما سيؤخذ في مصر «لا مالِك حيّ له». فيردّ عليه برتوليه همساً بأن هذا لا يعني أنه لا مالِك له. تستسلم مالطا في ١٢ يونيو. يمنع دينون إنزال لوحة كارافاجيو، لكن اللوحات الصغيرة تُحمل. وتضع الرواية قاعدتها منذ البداية: يُؤخذ ما يمكن نقله، ثم يُبرّر ذلك لاحقاً.

من الإسكندرية إلى النيل. في ١ يوليو تخبّط الإسكندرية الأمال: إنها مجرد مدينة صغيرة من الأكواخ. يقبس جومار عمود بومبي ويرسمه دينون من ثلاث زوايا. يأمر بوناپرت بترجمة بيانه إلى «شعوب مصر» إلى العربية. ثم يعبر الجيش الصحراء ولا يبلغ النيل إلا بعد أربعة أيام. وفي وقت لاحق، في سوق سقارة، يبيع فلاحون للجنود تماثيل صغيرة وتماثيل. يشتري دينون أوسابتي. ويترجم المترجم حسن كلمات البائع: إنها «قبر جدّه». يترجم الكلمات لا النبرة.

معركة الأهرام. في ٢١ يوليو يهتف بوناپرت بجنوده: «أربعون قرناً تتألمكم». يوضع العلماء في وسط مربعات المشاة. يرسم دينون المعركة، ثم الأهرام والموتى في مقدمة اللوحة. ينسحب مراد بك وتُحتلّ القاهرة في ٢٤ يوليو. وفي اليوم التالي للمعركة ينزل جومار إلى الهرم فيصافد جندياً شاباً يحمل جعراً. فيدرك أن هذا الفعل من طبيعة اقتطاعات العلماء نفسها. الدرجة وحدها تختلف.

معركة أبي قير. في ١ أغسطس يدمّر نلسون معظم الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير. وصار الجيش أسيرًا في مصر. وفي مساء ١٤ أغسطس يتفقد دينون المجموعات المخزنة في قصر حسن كاشف. فيجد فيها ثلاثة وعشرين صندوقًا بلا بطاقات، لا يعرف أحد محتواها. يدونها في يومياته ولا يحدث بها أحدًا. ويفهم كذلك أن العودة صارت غير مؤكدة. وما سيعود سيتوقف على ما يمكن أن يسافر.

المجمع العلمي المصري. في ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ يؤسس بونايرت المجمع العلمي المصري. يتولى مونج رئاسته ويفتح الجلسة الأولى: «نحن هنا لكي نفهم، لا لكي نغزو». يقيس جومار آثار منف مع دينون. ويرسم له شيخ في التراب كيف كانوا يجرون التماثيل العملاقة. يشرح جوفروا سان-هيلير أسماك النيل ويكتب عنها إلى كوفييه. ويجري برتوليه حصيلة خمسة أشهر من العمل.

ثورة القاهرة. في ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ تنور القاهرة. يقصف المدفعية الأحياء الثائرة ويستمر القمع ثلاثة أيام. يبقى العلماء محبوسين في المجمع ويواصلون أعمالهم. يخرج دينون لرسم رغم الخطر. فيرى جنديين يفرغان دكان نساجة أمام عينيه. ويكتب الراوي: «كان الجيش ينهب كما كان المجمع يجمع. اختلفت الكلمة. وتقاربت الحركة». يقول مونج لبونايرت إن القوة لن تكفي للحكم. فيجيب بونايرت: «الاحتلال يكفي».

أبو الهول والمقابر. في نوفمبر يقود دينون بعثة إلى أبي الهول، ثم إلى سفارة حيث يقيس جومار هرم زوسر. يدرس برتوليه راتنجات الموميوات والنظرون من بحيرات وادي النظرون. وأمام طيور أبي منجل المحنطة، المطابقة لطيور اليوم، يذكر جوفروا بأن كوفييه يرى فيها دليلًا على ثبات الأنواع. أما لامارك فيرى على العكس أن ثلاثة آلاف سنة مدة قصيرة جدًا لا يظهر فيها أي تغير. ويخلص برتوليه إلى أن أحدًا منهما لن يستطيع إثبات ما يقول. وعلى شظية من الغرائب يكتب دينون: «نحن نأخذ ما نظنه معرفة» ثم يلتقط قطعة.

النقاشات العلمية. في جلسة ١٥ ديسمبر يدافع مونج عن القياس ويدافع فوربيه عن المعنى. يحسم بونايرت: لا بد من الاثنين. يعرض كل أعماله، ويحتفظ فوربيه بعجالة: «النقل يسبق الفهم». وفي ممر يسأل دينون إن كان ينوي حمل القطع. فيجيب دينون بأن بعض الأشياء ينبغي أن تسافر لكي تُرى. ويحذر برتوليه بونايرت من أن الرحيل سيكون على عجل، وأنه لن يرحل إلا ما كان في الصناديق. يعلن بونايرت توجهه إلى الصعيد: «دينون سيفتح الطريق».

الفصل الثاني — الصعود في النيل

ندرة. في ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨ يتحرك رتل ديزيه نحو الجنوب. أعطى بونايرت دينون قائمة من أربع صفحات وحدد قاعدته: «فرنسا لا تنهب. إنها تنتقي وتوثق وتحفظ. الجنود هم من ينهبون». وفي ندرة يرسم دينون البرج السماوي على ضوء شمعة. يرى النقيب كوتيل أن الاقتلاع ممكن، لكنه طويل جدًا: «ربما بعد ثلاثين سنة». يكتشف جومار القائمة التي يحتفظ بها رقيب أول يدعى أوبرير. ويقدر أن نحو عشرة آلاف قطعة قد أخذت. يرى كوستاز الرقم صحيحًا. «هذا ليس مبررًا»، يجيب جومار.

طيبة. في ٢٧ يناير تخيم البعثة قبالة طيبة. وفي الكرنك يفهم جومار أن محور المعبد موجه نحو شروق الشمس في الانقلاب الشتوي. ويؤكد فوربيه أن حسابه صحيح. وفي الأقصر يسأل ديزيه إن كان يمكن أخذ المسلّتين. وزن كل منهما مئتان وثلاثون طنًا، ويؤجل الأمر. يحتفظ دينون لنفسه بوجه أوزيريس من البرونز المذهب، دون أن يصرّح به. ويقول له حارس عجوز إن كل جيش «يأخذ الحجارة». وفي الليل يكتشف جومار تجارة حسن الذي يقطع عمولة من كل المبيعات.

وادي الملوك. في ٣٠ يناير يقوم جومار بالمسح المثلثي لوادي الملوك. يلاحظ جولوا أن الأدلاء، حين يُظهرون مقابرهم للعلماء، يعجلون النهب. وفي إحدى المقابر يأخذ دينون بردية من كتاب الموتى، ثم بردية ثانية من يد جندي. ويدون: «أخذت البردية قبل الجندي». ويكتب جومار في يومياته أن الفرق بين الجمع والنهب يرجع إلى الوجهة لا إلى الفعل. وأمام تمثالي ممنون يلاحظ أن ما لا يمكن حمله هو وحده الذي يحتفظ بمعناه.

أسوان. في ٢ فبراير يصعد الرتل نحو أسوان. يرى جولوا جنديًا يشد على بقلته كيسًا يبرز منه نقش بارز. وفي ١٢ فبراير، في كوم أمبو، يتعرف الجراح برويان على أدوات جراحية على جدران المعبد. لكن ضابطي صف يكسران بلاطة من قدس الأقداس بمطرقة ثقيلة. يذكر ديزيه بأنه لا يلمس شيء دون أمر مكتوب، ثم يعترف بأن هذه القواعد غير كافية. وتختفي البلاطة في الليل. وينسخ جولوا نقشًا يعلم أن نسخته ستبقى الوحيدة.

فيلة. في ١٧ فبراير يصل دينون وجولوا إلى فيلة على فلوكة. كان بإمكان دينون أن يأمر بفك بعض كتل جناح تراجان بصورة قانونية. لكنه يتخلى عن ذلك، لا من تحرج، بل لأنه يرفض أن يدمر ما يؤثر فيه. تستغرق العودة إلى القاهرة سبعة عشر يومًا. يتقاتل الجنود على تمثال صغير، ولا يرفع الفلاحون سدهم إلا مقابل خمسة وثلاثين قرشًا. وفي أبيدوس يشتري دينون بخمسة قروش قطعة قُطعت لتوها من الجدار. وفي القاهرة يكون بونايرت قد غادر إلى سوريا ولا يعود إلا في يونيو.

حجر رشيد. في ١٥ يوليو ١٧٩٩ يكتشف الملازم بوشار قرب رشيد لوحًا من الغرانديوريت الأسود مغطى بثلاث كتابات. يقرؤه مارسيل ورايج: النص اليوناني مرسوم تكريمًا لبطلليموس الخامس. يصنع مارسيل عددًا كبيرًا من النسخ المطبوعة بالضغط ويرسل بعضها إلى أوروبا. يفهم جومار أن الحجر منهج لا مجرد شيء. وفي ٥ أغسطس يقارن الإشارات اليونانية إلى «بطلليموس» بالخرطوش ويفترض أن الخرطوش اسم علم. ويلخص كليبر: «لقد وجدتم مفتاح مصر القديمة بنصّ عن الضرائب».

المفاوضات والنصر ومقتل كليبر. في ١٨ أغسطس يغادر بونايرت مصر سرًا مع دينون ومونج وبرتوليه. يتولى كليبر القيادة. يحصي جومار ستة وتسعين صندوقًا، منها ثلاثة وعشرون ما زالت بلا بطاقات. وتنص اتفاقية العريش الموقعة في ٢٤ يناير ١٨٠٠ على الإجلاء مع المجموعات. لكن

في مارس يرفض الأميرال كيث المصادقة عليها. يهزم كليبر العثمانيين في عين شمس (هليوبوليس) في ٢٠ مارس. ويُغتال في ١٤ يونيو ١٨٠٠. ويخلفه مينو.

الفصل الثالث — زمن العلماء

الحملات الأخيرة. يتولى مينو القيادة ولا يغيّر شيئاً في أعمال المجمع. وفي جلسة يونيو يدافع جومار، وعمره اثنان وعشرون عاماً، عن الوثيقة في مواجهة الأثر. ويؤكد أن «الوصف» سيكون محمولاً حيث لا تُحمل المعابد. وفي ٢٥ يونيو ١٨٠٠ تنطلق بعثة إلى تانيس وبوباسطس. يأخذ جوفروا هناك ست موميאות قطط. ويدسّ جولوا في حقيقته تابوتاً صغيراً من البرونز لقطعة. وفي الخريف ينسخ في ثلاثة أيام كتاب مزامير كان الرهبان الأقباط يرفضون بيعه.

بعثات الصحراء. يصل خبر موت ديزيه في مارينغو، في ١٤ يونيو ١٨٠٠، إلى القاهرة في أغسطس. يحتفظ جولوا بسكين جيب الجنرال. وفي الدلتا، في سايس وبوتو، لا شيء يُحمل، لأن الكتل في جدران بيوت الفلاحين. يريد مينو توجيه الأعمال نحو مصر الإسلامية، ويتوصل إلى حل وسط. وفي صباح من مارس يرى جولوا جندياً يأخذ في خمس عشرة ثانية إيزيس من البرونز من كوة بيت قبطي. ولا يملك إلا أن يرسم الكوة الفارغة.

الزراعة والري. في شتاء ١٨٠٠-١٨٠١ يعرض كونتية على المجمع تقنيات الري المصرية. يلتقي جولوا عبد الله بن يوسف، المسؤول عن ترعة الجيزة منذ ست عشرة سنة، ويعود باثنين وسبعين كيساً صغيراً من الطمي. يلاحظ كونتية: «نحن نفعل بأرضهم ما فعله بتمائيلهم.» فيجيب جولوا بأن بالإمكان أخذ الطمي دون إفقار حق، لكن النيل لا يردّ التماثيل. يقول له عبد الله إن الكتابة لا تحلّ محلّ ألف عام من الممارسة. ويريه أربع كتل منقوشة عُثر عليها أثناء تطهير الترعة. يرسمها جولوا، ثم يحمل أصغرها.

الوقت ضيق. في ٨ مارس ١٨٠١ ينزل ستة عشر ألف بريطاني في أبي قير. تقرّر اللجنة نسخ كل شيء لإنقاذ أعمالها. يمسك مارسيل سجلاً بمشترياته. يأمر جولوا بعمل نسخ منقولة. يعيد جومار نسخ جميع مسوحاته في تسعة أيام، ويرسم جوفروا أنواعه. وفي النقاش الأخلاقي في أبريل يميّز جومار بين ثلاثة أصناف من الأشياء، منها ما استُخرج من المواقع الأثرية: «هذه الأشياء كانت تخص مصر. لقد أخذناها.» ويخلص جولوا إلى أننا سننشر بعد ذلك لتبرير هذا الأخذ. وفي ٢٠ يونيو يعدّ ٢٠٨٧ رسماً.

هزيمة القاهرة. في ٢٧ يونيو ١٨٠١ يفاوض بيليار على استسلام القاهرة. يشير أحد البنود إلى «المخطوطات العربية والتماثيل والمجموعات الأخرى المخصصة للجمهورية». يراه فوربيه غامضاً عن قصد، ويبحث عما لا يشمل. وفي ٣٠ يونيو يبيع التاجر سليمان القباني لمارسيل أوشتاتي وجعارين وتمائم ذهبية مدونة في جرده الشخصي. يهدد جوفروا بحرق مجموعاته إن صودرت. ويلخص فوربيه: «سيأخذون الأصول. ونحن سنحتفظ بالنسخ.» وكان الرحيل في ٢ يوليو.

المسير نحو الإسكندرية. في ٢ يوليو يغادر القاهرة ثلاثة عشر ألف جندي ومنتا مدني والعلماء. تطالب دورية عثمانية بالصناديق باسم مصر، فيبعدها الجنرال داماس. يُجلد فارّ من ليون. فيقول لجوفروا إنه لا يريد أن يرى ما سيحدث في الإسكندرية. تهبّ عاصفة رملية في ٧ يوليو، ثم يمرّون بلجينين أقباط. وفي ١٣ يوليو يريد ضابطان بريطانيان تفتيش الأمتعة، فيرفض داماس. وفي ١٤ يصل الجيش إلى الإسكندرية بثلاثة وستين صندوقاً.

الفصل الرابع — الانتهاء والعودة

الآثار الكبرى. في ٣ سبتمبر ١٨٠١ يحضر هاميلتون وكلارك لتسلم المجموعات. يعدّ كلارك الصناديق الثلاثة والستين. وفي ٤ سبتمبر تُسجّل الآثار الكبرى في السجل: حجر رشيد، وتابوت نختنبو الثاني، وتمثال كاهن آمون الأكبر، وقبضة ضخمة. لا ينازع فوربيه في هذا الحق. إنما يطلب فقط أن يحفظ التاريخ أن اللجنة هي التي اكتشفت هذه القطع. وما كان الفرنسيون يعيرونه على الجنود، يعيرونه عليهم البريطانيون.

المجموعات المنقّدة. تُعتبر الأدوات العلمية ملكاً شخصياً. وفي ٩ سبتمبر، حين يتقدّم كلارك نحو مجموعات جوفروا، يهدد هذا بإشعال النار في صناديقه. يتراجع كلارك. يقبل هاميلتون بأن تنشر اللجنة رسوماها، شريطة إرسال نسخة إلى المتحف البريطاني. تُقسم الآثار الصغيرة والموميאות مناصفة. يحتفظ مارسيل بنسخه المطبوعة بالضغط. ويحتفظ جولوا برسومه، وتبقى العملات للعلماء، باستثناء نحو خمس عشرة قطعة.

أخلاقيات السلب. في ١٨ سبتمبر يأتي هاميلتون إلى العشاء وحده ويعلن أن تابوت نختنبو يرحل في اليوم التالي. يجيبه جولوا بأنه بعد مئة عام سيضطر مصري إلى الذهاب إلى لندن ليراه. ويذكر جوفروا بأن مصر ليست هي التي دعته. ويسأل فوربيه بماذا سيجيب المتحف البريطاني لو طالبت مصر يوماً بأملاكها. يجيب هاميلتون: «لا أستطيع أن ألزم القرن القادم.»

في ٢٢ سبتمبر يطالب التاجر محمود الطويل بثماني تماثيل صغيرة قال إنها سُرقَت منه. يرفض هاميلتون إعادتها. ويُوقّع المحضر في المساء نفسه.

الوداع. تُخصّص الأيام الأخيرة من سبتمبر للتعبئة. ينهي جولوا فهرس رسومه الـ ٢٠٨٧ ويُختم الاثنان والأربعون صندوقاً. يسلم هاميلتون تصاريح المرور. يقول له جولوا: «أتمنى لك أن تُحسن استعمال ما تحمله.» ولن يلتقي بعد ذلك أبداً. وفي ١ أكتوبر يودّع جولوا شيخاً من شيوخ الإسكندرية، ثم يبدأ الصعود إلى السفن. ويبقى أنابيبه النحاسية في مضجعه.

العبور. يكون البحر هائجًا في الأيام الأولى. يلاحظ جومار أن أضلاع قواعد الأهرام الكبرى أطول قليلاً من الشرق إلى الغرب منها من الشمال إلى الجنوب. ويستنتج أن اليبانيين راعوا تقوُّس الأرض. وتحمَّسه هذه الفرضية بقدر ما تخيفه، لأنها تفترض معرفة ضائعة. يمزق فوربيه إحدى عشرة بداية لمقدمة قبل أن يبدأ بالنيل. يتوقف الأسطول في فالييتا حيث يرفرف العلم البريطاني. وتظهر فرنسا في ١٦ أكتوبر.

العودة إلى فرنسا. في ١٨ أكتوبر ١٨٠١ يصل الأسطول إلى طولون بعد ثلاث سنوات وخمسة أشهر من الرحيل. تُعامل الصناديق الاثنان والأربعون كحمولة دقيق. يحزّر فوربيه التقرير الرسمي ولا يذكر الخسائر إلا في هامش بالملحق. وفي باريس، في ٢٨ أكتوبر، لا موكب ولا استقبال. وفي ١٠ ديسمبر يجعل بوناپرت «الوصف» مشروعًا للدولة. فوربيه رئيس التحرير ودينون المدير الفني. وقد مات نحو ثلاثين عضوًا من اللجنة في مصر.

يبدأ العمل. بعد عام من عودتهم ينقل جومار مسوحاته في غرفته الباردة بشارع لا كروا-فويان. يبدو «وصف مصر» ضخماً: ٨٩٤ لوحة، ونحو أربعمئة نقش، وثلاثة وعشرون مجلداً صدرت بين ١٨٠٩ و ١٨٢٩. يشطب فوربيه الجمل الغنائية من مقالات دينون، فيعيدها هذا. ويترك النيرتين تتعاشيان. وفي ٣١ ديسمبر ١٨٠٢ ينظر دينون إلى أنابيبه النحاسية ويبدأ مقالة الكرنك. ويختتم الراوي: «كانت التماثيل في لندن. وكانت المعرفة في باريس.»

٤. الشخصيات الرئيسية

دومينيك-فيغان دينون (رسام، ومدير المتاحف مستقبلاً)

النظرة المحورية في النصف الأول من الرواية. يرسم الموتى قبل الآثار. وينقذ كارافاجيو من مالطا، ويأخذ بردية وادي الملوك. يغادر مصر في أغسطس ١٧٩٩ مع بوناپرت.

نابليون بوناپرت (القائد العام)

شخصية بعيدة وحاسمة في أن: يسلم دينون قائمة من أربع صفحات ويصوغ «المستويات الثلاثة» للمشروعية: ما تحمله اللجنة مع استثماراتها يذهب إلى اللوفر، وما يحمله الجنود في حقائبهم لا يستطيع منعه، وما يوثقه العلماء في دفاترهم يبقى في فرنسا بصورة أخرى. يغادر مصر سرّاً في ١٨ أغسطس ١٧٩٩.

غاسبار مونج (رياضي)

رئيس المجمع العلمي المصري؛ يدافع عن القياس في مواجهة المعنى الذي يطالب به فوربيه.

كلود-لويس برتوليه (كيميائي)

يسمى البعثة «عملية اقتناء»؛ يدرس راتنجات التحنيط والنظرون والتوازنات الكيميائية.

جوزيف فوربيه (رياضي)

صوت المعنى والتركيبة؛ ينظم النسخ المنهجي للأعمال، ويصوغ «النسخ هي الغنيمة الحقيقية» ويكتب مقدمة «الوصف». يموت عام ١٨٣٠.

إدم-فرانسوا جومار (مهندس جغرافي)

يلاحظ ويقيس ويحسب؛ يدافع عن فرضية الخراطيش وعن الجيوديسيا الخاصة بالآثار.

بروسبير جولوا (مهندس)

مهندس اللجنة ورسامها؛ ينسخ وينقل الرسوم، وفي عام ١٨٠١ يدافع عن الدفاتر في وجه كلارك.

إتيان جوفروا سان-هيلير (عالم طبيعة)

المدافع عن المجموعات الحيوانية؛ وتهديده بإحراق عيناته في وجه البريطانيين من أقوى لحظات الرواية.

جان-جوزيف مارسيل (مستشرق)

صاحب النسخ المطبوعة بالضغط لحجر رشيد وسجل من ١٦٢ مدخلاً؛ يحفظ الأثر حين تُصادر الأشياء.

لوي ديزيه (جنرال)

فاتح الصعيد، يعطي الدفعة لبعثة الجنوب. يموت في مارينغو.

جان-باتيست كليبر (جنرال)

خليفة بوناپرت؛ اغتاله سليمان الحلبي في القاهرة في ١٤ يونيو ١٨٠٠.

كوستاز (مهندس)

في دندرة يملأ استثمارات الاقتناء الرسمي في العراق، وهو ما يميّز، بحسب جومار، الجمع عن نهب الجنود.

نيكولا-جاك كونتييه (مهندس ومخترع)

يعرض على المجمع الهيدروليكا المصرية ويصوغ: «نحن نفعل بأرضهم ما نفعله بنماتيلهم». يموت عام ١٨٠٥.

حسن (مترجم)

مترجم من القاهرة: بترجم، ويقطع عمولة من المبيعات، ويرى دون أن يقدر على الفعل. تمرّ عبره تقريبًا كل الأقوال المصرية في الرواية.

عبد الله بن يوسف (وكيل ترعة الحيزة)

حامل معرفة الري، يذكر بأن الكتابة لا تحلّ محلّ التجربة.

ويليام ريتشارد هاميلتون وإدوارد دانيال كلارك (المفوضان البريطانيين)

يطالبان بالأثار الكبرى في عام ١٨٠١ ويقبلان على الفرنسيين حجتهم نفسها.

مينو (جنرال)

القائد بعد كليبر، اعتنق الإسلام، ويصمد في الإسكندرية حتى استسلام ١٨٠١.

أوبير، ومحمود الطويل، وسليمان القباني، والفارّ من ليون (شخصيات متخيّلة أو قليلة التوثيق)

شخصيات لم يثبت أساسها التاريخي في النص؛ وهي تعمل صوتًا لما تسكت عنه المصادر.

٥. المحاور الرئيسية

الجمع والنهب: اختلاف في الاسم لا في الحركة

الرواية كلها في هذه الجملة من ثورة القاهرة: «كان الجيش ينهب كما كان المجمع يجمع. اختلفت الكلمة. وتقاربت الحركة.» والتميز الذي يدّعيه بونايرت — الجنود ينهبون، وفرنسا تنتقي — يُستعاد ويُناقش ويُمتحن بالوقائع.

المستويات الثلاثة للمشروعية

قائمة بونايرت ذات الصفحات الأربع، وتراخيص العلماء، ثم العجز أمام الجنود، تشكّل سلّمًا من التبريرات المتعاقبة. فما يظن العالم أنه ينقذه يأمر به الجنرال ويحمّله الجندي.

الوزن يقرّر ما يرحل

تختزل الرواية خيارات التراث في مسائل نقل: ما يتحرك هو ما يمكن تحريكه. فالوزن، أكثر من القيمة، هو ما يحدد ما يغادر مصر.

الشيء والمعلومة

في مواجهة الفقد يكثر العلماء النسخ والرسوم والنُقول والنسخ المطبوعة بالضغط: «النسخ هي الغنيمة الحقيقية». ويتحول النصف الثاني من الرواية من اقتطاع الأشياء إلى اقتناص المعرفة.

المعرفة المحلية والمعرفة العالمية

يتعلم المهندس الفرنسي من الوكيل أن الكتابة لا تحل محل العمل اليدوي. وتُظهر الرواية العلماء معتمدين على معرفة يزعمون أنهم يكتفون بجمعها.

العلم في خدمة الاحتلال

المجمع والورش والخرائط: العلم إحدى أدوات الوجود الفرنسي. والكتاب لا يدينه؛ إنه يبيّن أنه يخدم.

المصريون بلا صوت

يتوسط المترجم دائمًا تقريبًا، ويُقلّ كلام المصريين بصيغ مثل «يقول إن...». وهذا الصمت موضوع أيضًا: فأصحاب التراث لا يجلسون في اللجان.

السالبون المسلوبون

يُظهر الفصل الأخير البريطانيين وهم يأخذون بدورهم ما أخذه الفرنسيون. ومنطق الغزو لا يتوقف عند أمة بعينها.

٦. الجزء الموثَّق والجزء المتخيَّل

تستند الرواية إلى وقائع ثابتة: معركة أبي قير، وتأسيس المجمع العلمي المصري، واكتشاف بوشار حجر رشيد في ١٥ يوليو ١٧٩٩، واغتيال كليبر، والنصر في عين شمس، والبند ١٦ من استسلام القاهرة، والمواجهة مع هاميلتون وكلاارك، وتهديد جوفروا سان-هيلير، وتعيين دينون مديرًا للمتاحف، ونشر «وصف مصر». أما الحوارات والأفكار الداخلية وبعض الشخصيات الثانوية فمتخيَّلة، كما يوضح التنبيه.

ويبقى منطقتان غامضتان: الأساس التاريخي لعدد من الشخصيات (أوبير، ومحمود الطويل، وسليمان القباني، والفار من ليون) غير ثابت في النص، والصناديق الثلاثة والعشرون بلا بطاقات، التي لمحها دينون بعد أبي قير، لا تُوضَّح أبدًا في هذا الجزء.

٧. البناء السردي والأسلوب

- بنية من أربع حركات: الإبحار والفتح، والصعود في النيل، ومحنة الهزيمة، والعودة؛ وتتغلق الرواية على صدى لافتتاحها.
- بؤرة تنتقل: يحمل دينون النصف الأول؛ وبعد رحيله ينتقل النظر إلى جومار وجولوا وفورييه.
- ولع بالجرد: الأعداد والقياسات وقوائم الصناديق (٩٦، ثم ٦٣، ثم ٤٢) تحل محل التشويق.
- سجلان: السرد التاريخي الموجز للمعارك، والمشهد الطويل المرهف للاكتشافات والحوارات.
- جمل جكمية على هيئة خاتمة، تلخص مشهدًا وتعود كاللازمة.
- راوٍ عليم: يعلن ما سيأتي (مسألة الكونكورد، وسد أسوان) ويمنح السرد عمقًا تاريخيًا.

٨. اقتباسات بارزة

- «ما كان يونانيرت يسميه بعثة علمية، كان برتوليه يسميه، في ملاحظاته الخاصة، عملية اقتناء. وكانت الكلمة أدق.»
- «كان الجيش ينهب كما كان المجمع يجمع. اختلفت الكلمة. وتقاربت الحركة.»
- «التمييز بين الجمع والنهب تمييز في الوجهة، لا في الفعل. نحن نجمع من أجل باريس. وهم ينهبون لأنفسهم. ووادي الملوك لا يفرق.»
- «ليست القيمة. وليست الأهمية التاريخية. بل الوزن.»
- «سياخزون الأصول. ونحن سنحتفظ بالنسخ. النسخ هي الغنيمة الحقيقية.»
- «لن أكون أنا من يجيب. سيجيب شخص آخر، في ظروف أخرى. لا أستطيع أن ألزم القرن القادم.»
- «كانت التماثيل في لندن. وكانت المعرفة في باريس.»

٩. تحليل نقدي

نقاط القوة

- أطروحة واضحة تتماسك من البداية إلى النهاية: التمييز بين الجمع والنهب يُمتَحَن بالوقائع.
- مادة تاريخية كثيفة، تُجسَّد في وقائع ملموسة (وادي الملوك، رشيد، تهديد جوفروا).
- مشاهد قوية: مالطا، وليلة الجيزة، وعشاء هاميلتون، وتهديد الفداحة.
- نبرة متزنة: الرواية تعرض أكثر مما تدين، وتترك القارئ يحكم.

الحدود ونقاط الانتباه

- تُعلن الأطروحة على لسان شخصيات كثيرة، مما يجعلها شديدة الوضوح لكنه يولد تكرارًا.
- حملة سوريا مختزلة في جملتين: الاختيار مفهوم، لكن الحذف مفاجئ.
- المصريون يتوسط لهم المترجم دائمًا تقريبًا («يقول إن...»): الأسلوب دالّ، لكنه يُقيهم في موقع ثانوي.
- الفصل الرابع متقل بحوارات تفسيرية، تصرّح بالحصيلة الأخلاقية أكثر مما تجعل القارئ يعيشها.
- خيط الصناديق الثلاثة والعشرين بلا بطاقات يبقى مفتوحًا في هذا الجزء، دون حل.
- ينتقل مركز الثقل من دينون إلى جومار وجولوا وفورييه بعد أغسطس ١٧٩٩، مما يُضعف توازن النصف الثاني.

١٠. خاتمة

الجزء الثاني من «النهب الكبير» رواية جرد أخلاقي: يتبع مصر العلماء ليبين أن الجمع العلمي والنهب يفترقان بوجهتهما أكثر مما يفترقان بحركتهما. وهي، وقد بُنيت حول أطروحة حاضرة بقوة وتغير في الإيقاع في نصفها الثاني، تحافظ عليها بمشاهد ملموسة وكتابة رصينة. ودرسها الأخير هو الأكثر إقلاقاً: ما أخذته فرنسا يأخذه البريطانيون منها بدورهم، والمصريون لا يطلبون إلا أن يُدَوَّن اسمهم.

التحليل الأسلوبي الكامل

النهب الكبير — الجزء الثاني

رواية لروبير كازانوفاس

دراسة في اللغة والبناء السردى والتأثيرات البلاغية

إعداد بيير كولونج

الكلمات المفتاحية: الجرد، تعاقب النظرات، الكلام المنقول، الحكمة، الاستباق

مدخل منهجي

تتناول هذه الدراسة الجزء الثاني من «النهب الكبير» («حملة مصر، ١٧٩٨-١٨٠١»). وهي تقتصر على هذا الجزء: فالملاحظات حول السلسلة لا تصح إلا عليه. وفيها تُقرأ اللغة والبناء السردى والتأثيرات البلاغية لرواية تضع شكلها في خدمة سؤال أخلاقي. ويستند كل محور إلى مقاطع مقتبسة، أُعيدت إلى موضعها في القسم.

تختار الرواية كتابة تحقيق لا كتابة تدفق: جمل قصيرة، وأرقام، وقوائم، وحكم. ويُعامل القارئ كشاهد لا كمتفرج، وهذا ما يفسر المكانة الممنوحة للجرد والوثيقة.

١. رواية متعددة البؤر: تعاقب النظرات

ليس للحكاية بطل واحد. يرى دينون أولاً: يرسم الموتى قبل الحجارة، ويمنع حمل كارافاجيو في مالطا، ويأخذ بردية في وادي الملوك. وبعد رحيله في أغسطس ١٧٩٩، يتولى جومار وجولوا ومارسيل وفورييه الأمر. وهذا التغير في البؤرة يتيح للرواية أن تنتقل من الرؤية إلى القياس، ثم من القياس إلى النسخ.

تفتتح آلية «ما لم يكن X يراه» عدة مقاطع: فالراوي، خارج وعي الشخصية، يكمل نظرتها بما تجهله. والأثر مزدوج: يمنح المشاهد سخرية، ويذكر بأن منظور العلماء جزئي.

«ستموت على متن سفينة»

الفصل الأول، القسم ١ — دينون أمام كارافاجيو، في مالطا.

٢. الجرد شكلاً: أرقام وقياسات وقوائم

تجعل الرواية من الأعداد مادة أدبية. فالصناديق تنتقل من ٩٦ إلى ٦٣ ثم إلى ٤٢: والخسارة تُقرأ في التناقض. وتقدير جومار في دندرة (٨٠٠)، ثم أكثر من ١٠٠٠ قطعة، ثم ١٠٠٠٠ للحملة) وسجلات مارسيل (١٦٢ مدخلاً) يخلقان توترًا بمجرد المحاسبة. فالتشويق ليس تشويق حبكة؛ إنه تشويق حصيلة.

وتمنح هذه الكتابة القارئ شعورًا بالوزن الحقيقي للأشياء، وفق القانون الذي تعلنه الرواية نفسها: ليست القيمة هي التي تقرر ما يرحل، بل الوزن.

«ليست القيمة. وليست الأهمية التاريخية. بل الوزن»

الفصل الثاني، القسم ٤ — أسوان.

٣. نظامان لغويان: الاستثمار والحسي

يتناوب النص بين نظام إداري (قوائم، واستثمارات، ومحاضر، وبنود) ونظام حسي (ضوء، وحجر، وأيدٍ، وليل). الأول جاف ومرجعي؛ والثاني يعيد للقارئ ما فقده في الاستثمار. والتباين وسيلة: إنه يُظهر ما يحويه الإجراء.

ومشاهد النسخ والقياس والرسم هي المواضيع التي يلتقي فيها النظامان. وهناك تجد اللغة أعلى مردودها.

٤. الكتابة كي لا يُنسى: دفاتر ورسائل ونسخ

يكتب تقريبًا كل الشخصيات: دينون في رسائله، وجومار في دفاتره، ومارسيل في سجله، وفورييه في مقدمته. وتجعل الرواية من الكتابة جوابًا على الفقد المعلن، ومن النسخ فعلاً أخلاقياً بقدر ما هو تقني.

وعبارة «النسخ هي الغنيمة الحقيقية» تكثف هذه الفكرة. وهي تمهّد أيضًا للسخرية الختامية: ما أنقذ هو ما كان يتسع له لفافة.

«سأخذون الأصول. ونحن سنحتفظ بالنسخ. النسخ هي الغنيمة الحقيقية.»

الفصل الثالث، القسم ٥ — هزيمة القاهرة.

٥. صوت الآخر، بالوساطة: المترجم والكلام المنقول

يتكلم المصريون دائمًا تقريبًا بواسطة حسن أو مترجم آخر. والصيغة الغالبة هي الكلام المنقول: «يقول إن...»، «يقول إنه يفهم». وهذا الأسلوب صورة بلاغية: يجعل المرء يحس بأن صوت الآخر لا يُسمع مباشرة.

والمقطع الأكثر دلالة هو ذلك الذي يطلب فيه محمود الطويل أن يُدوّن اسمه، بعد أن رُفض له استرداد تماثيله الصغيرة. ابنه هو الذي يترجم، ويُقبل الطلب: إنها اللحظة الوحيدة التي ينال فيها صوت مصري أن يُسجّل.

«يقول إنه يفهم. ويقول مع ذلك دُونوا اسمي.»

الفصل الرابع، القسم ٣ — أخلاقيات السلب.

٦. المادة والحركة: حجارة وأيدٍ وضوء

تنتبه الرواية إلى المواد: الغرانوديوريت، والبردي، والطمي، والراتنجات، والنطرون. والأيدي (أيدي النساخ والنساجات والرياحين) موضع معرفة فيها. وعبارة «الأيدي تعرف» ترسخ معرفة جسدية لا تملكها المجامع.

ويؤدي الضوء وظيفة علامات الترقيم: مصابيح السهر، وفجر النيل، وليلة الجيزة. وهو يعلم دخول المشاهد وخروجها ويمنح السرد تنقّسه.

٧. الحكمة والخاتمة والتصويب

يؤثر الأسلوب الجملة الحكيمة القصيرة، وكثيرًا ما توضع في آخر الفقرة. وتتخذ شكل تصويب («لم يكن ذلك بروذاً. كان ذلك طريقته في الخوف.»)، أو طباق («هم كانوا يأخذون ما بظنونه كنورًا. ونحن نأخذ ما نظّنه معرفة.»)، أو اختزال («اختلفت الكلمة. وتقاربت الحركة.»).

وهذه الصور تمنح الكتاب قوة الحفظ، وتمنحه توقعه؛ وعودتها المنتظمة تعمل كلازمة، لكنها تقارب التكلّف: فبعض المشاهد ينغلق على صيغة خمنها القارئ سلفًا.

«كان الجيش ينهب كما كان المجمع يجمع. اختلفت الكلمة. وتقاربت الحركة.»

الفصل الأول، القسم ٦ — ثورة القاهرة.

٨. الراوي العليم: الاستباقات وسجلّ التاريخ

يتجاوز الراوي وعي شخصياته. فيعلن مسألة الكونكورد، وبردية كاديه، وسد أسوان، ويمنح المشهد عمقًا تاريخيًا. وتدرج هذه الاستباقات النص في ذاكرة الاسترداد الراهنة، دون أن تسميها أبدًا.

وفي المعارك (أبي قير، عين شمس) ومقتل كليبر يغيّر السجلّ ويتبنّى نبرة التأريخ: جمل أقصر، وتواريخ، ووقائع. ويدل هذا التغيير على أن التاريخ العسكري ليس الموضوع، وأن المشهد الحقيقي يدور في موضع آخر.

٩. الإيقاع والسهرات والبناء العام

كثيرًا ما تتعلّق الأقسام على مصباح أو ليل أو كوكبة: فالحكاية تتقدم بالسهرات. ويتراوح الإيقاع بين مشاهد طويلة (دندرة، وعشاء هاميلتون) واختصارات تاريخية (حملة سوريا، والعبور)، مما يتفادى رتابة الجرد.

والبناء دائري: تبدأ الرواية على رصيف طولون وتنتهي في باريس، على مقالة الكرنك لدينون، وأوريون أفقًا مشتركًا. والخاتمة تبقى مفتوحة: «لم ينته دينون بعد. كانت الحملات ستُستأنف.»

«كانت التماثيل في لندن. وكانت المعرفة في باريس.»

الفصل الرابع، القسم ٧ — يبدأ العمل.

١٠. نقاط القوة والحدود الأسلوبية

نقاط القوة

- كتابة رصينة، تناسب موضوعاً يكون فيه التفخيم مثاراً للريبة.
- شكل (الجرد) يحمل البنية ما تعلنه الأطروحة.
- جُكَم لافتة سهلة الحفظ.
- سجلّ مزدوج (تأريخ ومشهد) ينوّع الإيقاع.

الحدود ونقاط الانتباه

- الأطروحة، التي تحملها شخصيات كثيرة، تترسخ بقوة لكنها تنتهي إلى التكرار.
- الحكمة الختامية، وهي كثيرة الورد، تميل إلى أن تصبح متوقّعة.
- الكلام المنقول، وهو خيار مقصود، يُبقي الأصوات المصرية على مسافة ويفتقر إلى التنوع.
- حوارات الفصل الأخير تفسيرية في الغالب أكثر منها درامية.

خاتمة

يقوم الجزء الثاني من «النهج الكبير» على كتابة تحقيق: تعدّ وتقيس وتفتبس وتصحّح. وأول ميزاتها الاتساق بين الشكل والمقصد، إذ الجرد هو الموضوع والمنهج معاً. والحكمة، المتكررة، تؤدي فيها دور اللازمة؛ ويكون الكتاب في أفضل حالاته حين يترك الأشياء والصمت تتكلم.

«ليست مصر هي التي دعتنا.»

الفصل الرابع، القسم ٣ — الكلمة الختامية لعشاء هاميلتون.